تحولات الدولة والمجتمع بعد الربيع العربي

التأسيس الثاني للأمة
تتحرر حتى تتجدد

د. رفيق حبيب

نوفمبر ٢٠١٥

دخلت المنطقة العربية والإسلامية حالة اضطراب عميق، هي نتاج مرحلة الاستعمار والاستبداد، ثم هي نتاج الانقلاب على الربيع العربي. مما جعل المنطقة في أشد حالات التفكك والنزاعات الداخلية، وأيضا الحروب الأهلية.

تبدو حالة التفكك والنزاع التي وصلت لها المنطقة العربية والإسلامية، وكأنها سوف تظل مرتبطة بالمعركة الدائرة بين الثورة والانقلاب، وأن الخروج من تلك الحالة، لن يكون إلا جزءا من الخروج من منظومة الاستبداد والاحتلال.

تبدو الثورة إذن، هي الجواب لسؤال التفكك والنزاعات، ولكن معارك الثورة نفسها، تشهد نزاعات وحروب أهلية، لأن الثورات ضربت من خلال توظيف حالة التفكك التي أسسها الاحتلال ورعاها الاستبداد، فحالة الاضطراب تستمر حتى تنتصر الثورات.

لا يمكن أن يكون مجرد انتصار الثورة هو نهاية لحالة التفكك والاضطراب التي تعيشها المنطقة، فحالة الأمة الإسلامية، تحتاج بالفعل لإعادة تأسيس، يعيد لها بنيتها الحضارية، ويعيد تأسيس وحدتها الحضارية أيضا.

الحادث أن عملية التفكيك يصاحبها عملية بناء جديد، من داخل المعارك والنزاعات، وهو ما يشير إلى مرحلة جديدة من تأسيس الأمة، تتأسس فيها حول الكتلة الثائرة، أي كتلة التحرر، والتي تحمل هوية الأمة، وتدافع عن وضعها التاريخي.

قد تكون عملية التفكيك هي المرحلة الأولى من عملية إعادة البناء، والتي تبدأ بتشكل نواة للأمة، ومن ثم توسع تلك النواة حتى تصبح القاعدة التي تشكل عليها الأمة من جديد، ويعاد بناء كيانها الحضاري، باستعادة هويتها الحضارية.

الأمة النواة

في مشهد مضطرب، تبدو العديد من مكونات الأمة وكأنها خرجت من موروثها الحضاري، وتبدو مكونات أخرى وكأنها مرتبطة بقوى الهيمنة والاحتلال الخارجي، وتقف الكتلة الثورية، بوصفها المكون المدافع عن الهوية والتحرر.

تشكل النواة الصلبة للثورة، يبدو وكأنه تشكل للنواة الصلبة للأمة أيضا، وكأن الكتلة الثائرة، والتي أدركت معنى التحرر والاستقلال، والتي تحمل هوية الأمة، هي التي تمثل الاستمرار التاريخي الحضاري للأمة.

مع انفصال مكونات عن الموروث الحضاري، بصورة أو أخرى، يستمر حضور الموروث الحضاري داخل مكون من الأمة، وعندما يتعرض هذا المكون للإقصاء من قوى الانقلاب على الثورة، يصبح الممثل الباقي للأمة.

النواة الصلبة للأمة هي في نفس الوقت النواة الصلبة للتحرر، فالمسألة التاريخية والحضارية مرتبطة أساسا بالتحرر، فلا وجود لأمة ناهضة إلا إذا كانت قد تحررت من كل قوى الاحتلال الداخلي والخارجي، لأن التحرر بداية النهضة.

من الواضح، أن إعادة تأسيس الأمة، يرتكز أساسا على مشروع الثورة والتحرر، ويرتكز أيضا على تشكل نواة صلبة للثورة تتمسك بالهوية، وتدرك أن معركة الثورة هي أيضا معركة هوية، لأن القوى التي تستهدف الثورة تستهدف الهوية أيضا.

كان من نتاج الانقلاب على الربيع العربي، تشكل مسار للثورة له عمق تاريخي واضح، مما جعل معركة الثورة، تعد معركة إعادة التواصل مع الموروث الحضاري، وتحرير الأمة وإعادة بنائها من جديد، من خلال كتلة تنتمي لحضارة الأمة.

في خضم المعركة مع قوى الاحتلال والانقلاب، فإن مساحات النزاعات والحروب تتزايد، ولكن كتلة التحرر والثورة تتوسع أيضا، وتوسعها لا يعني فقط تزايد كتلة التأييد للثورة، بل يعني أيضا توسع قاعدة التأسيس الثاني للأمة.

بقدر ما تتوسع دوائر التأييد للحراك الثوري، حتى تلك الدوائر التي تؤيد ولا تشارك، تكون قاعدة الموروث الحضاري الحي في توسع، وهو ما يبني قاعدة صلبة وممتدة للمجتمعات، تعيد بناء أوطان الأمة الإسلامية مرة أخرى.

التشكل الحادث لتيار الثورة والتحرر، يبني نموذجا لمجتمع متماسك، وله رؤية وقيم يستند عليها، وهو ما يبني نموذجا للمجتمع الجديد في كل بلد من بلدان الربيع العربي، ويكشف عن المفارقة بين كتلة الثورة وكتلة الانقلاب والاحتلال.

قدرة النواة الصلبة للأمة، أو جمهور الحراك الثوري، على توسيع قاعدته، تعتمد على قدرته على تقديم النموذج الحضاري الجامع، الذي يمثل النموذج الحضاري الذي جمع بالفعل كل مكونات الأمة في الماضي، وهو ما يجعل لدى نواة الأمة، القدرة على استيعاب مختلف مكونات الأمة.

قد يغلب على جمهور الحراك أو النواة الصلبة، تصورات ضيقة أو متشددة بسبب ما يواجه من معارك، وفي هذه الحالة، يكون تصور النواة الصلبة لا يساعد على توسيع القاعدة الشعبية، في بعض المراحل، وهو ما قد يقوي كتلة الحراك، ولكن يقلل قدرتها على التوسع.

الأمة النواة تتشكل بقدر ما تكون إجابة على مختلف الأسئلة، بل وإجابة أيضا على مختلف التحديات التي تواجه شعوب الأمة الإسلامية، فرغم أن بعض مكونات الأمة ناصرت الانقلاب والاحتلال، إلا أن كل مكونات الأمة تغرق في حالة اضطراب عميقة.

تخرج الشعوب والأمم من حالة الاضطراب والتردي، من خلال وعيها بذاتها الحضارية، ثم من خلال نضالها من أجل التحرر والنهوض، لذا فالقيم التي تشكل الذات الحضارية للأمة، هي التي تعيد لها الاستقرار، وهي التي تبني مسار التحرر والنهوض.

بقدر ما تكون الهوية التي يحملها الحراك الثوري، هي إجابة على سؤال القلق والاضطراب، بقدر ما تكون نواة الحراك والأمة، هي مركز الجاذبية الثقافية والاجتماعية، الذي يجذب مكونات أخرى له مع الوقت، ومنها يعيد تأسيس جماعات الأمة على أساس قيمها.

دور الحركة الإسلامية الثورية مهم، فهي تمثل الآن مركز الحركة من أجل التحرر والاستقلال والنهوض، لذا فإنها تقوم بدور مركزي في إعادة الأسس التي تشكلت عليها الأمة، وإعادة إحياء القيم التي تمثل الذات الحضارية للأمة.

قدرة الحركات الإسلامية على التمييز بين رؤيتها الخاصة، وبين الرؤية العامة التي تمثل الهوية العامة للأمة، تمكنها من تأسيس القواعد العامة المشكلة للأمة، والمؤسسة لوجودها الحضاري، والتي تعبر عن كل مكونات الأمة، حتى تلك التي ترفض العودة لموروثها الحضاري.

ما يحمله الحراك الثوري هو الهوية الجامعة، وليس الرؤى الخاصة النابعة منها، وبقدر ما تكون هوية الحراك الثوري تمثل القيم والقواعد العامة المؤسسة للأمة، بقدر ما يكون معبرا بالفعل عن الموروث الثقافي والحضاري لكل مكونات الأمة.

من خلال توسع قاعدة النواة الصلبة للأمة، وتوسع الجمهور المدرك والواعي لمعارك الأمة، قدر وعيه بالقيم والمبادئ المؤسسة للأمة، تتنوع مكونات نواة وجمهور الحراك بصورة تجعله يعكس نسبيا تنوع الأمة، إلا بعض الفئات التي انحازت بالكامل للانقلاب والاحتلال.

وكأن نواة الأمة تبدأ بدرجة من النقاء أو الأحادية، ثم تتوسع بقدر يجعلها متنوعة، ثم تعكس درجات التنوع المختلفة الموجودة في الأمة، ولكن نسبيا، مما يجعلها نموذجا لمجتمع من مجتمعات الأمة، يتجمع مع المجتمعات الأخرى التي تتحرر، ليشكل نموذجا جديدا للأمة.

مراحل التأسيس والتحرر

من الواضح أن المعركة الشرسة التي تتعرض لها الأمة، تستهدف أساسا استمرار تغييب الأمة تاريخيا وحضاريا، حتى تظل مجرد مجتمعات متفرقة وتابعة، لذا فإن استعادة الأمة لهويتها ووحدتها الحضارية، تمثل تهديدا لقوى الاحتلال والهيمنة.

يبدو المشهد الدولي واضحا، فالدول المهيمنة على عالم اليوم لا تريد قوى أخرى تشاركها القيادة أو الريادة، أو تشارك في الاستفادة من الثروات والموارد لتبني تقدمها. مما يعني أن القوى المهيمنة لا تريد أن تتحرر بلدان العالم الإسلامي.

في الوعي التاريخي الغربي، فإن وحدة الأمة الإسلامية تمثل تهديدا مباشرا لقيادة الغرب للعالم، فلا توجد قوى تزعم القيادة والهيمنة على العالم، ما لم تكن مسيطرة على منطقة وسط العالم، وهي المنطقة العربية والإسلامية.

في كل الحروب الباردة والساخنة، تتنافس القوى العظمى من أجل الهيمنة على المنطقة، من خلال أنظمة تابعة لها، لذا فإن الربيع العربي جاء ضد مصالح الدول الغربية كما تراها، وضد مصالح القوى التي تعتمد على حماية مصالحها من خلال فرض هيمنتها على المنطقة.

تفكيك المنطقة على مختلف المستويات، كان سياسة المحتل والمستبد، لذا فإن التحرر يعني إعادة بناء المفكك من جديد، وإعادة البناء تبدأ على مختلف المستويات، حتى تتأسس المجتمعات والأوطان، ومن ثم يعاد تأسيس الأمة من جديد.

وحدة الأمة الإسلامية، هي وحدة الحضارة والمصير، وهي وحدة سياسية تحقق للأمة بناء قدراتها وحماية مصالحها المشتركة، لذا فوحدة الأمة، قد تبنى من خلال اتحاد إسلامي بصور مؤسسية مختلفة، ولا يعني إعادة وحدة الأمة استدعاء شكل تاريخي محدد لتلك الوحدة.

المسار الحالي يوضح كيف تتشكل الأمة من خلال جماعات داخل كل مجتمع، حتى المجتمعات التي لا تمر بمرحلة الثورة، فيبدو أن هناك كتل في كل المجتمعات العربية والإسلامية، تناصر الثورة والتحرر، وتؤيد الكتل الثورية في بلدان الربيع العربي.

الكتل التي تحمل موروثها الحضاري، ولها القدرة على تجديد هذا الموروث، هي التي تحمل مشروعا لبناء نهضة حضارية جديدة، وتلك الكتل تمثل نواة لبناء كيان الأمة الحضاري مرة أخرى. ومعنى هذا أن إعادة التأسيس لا تحدث في بلاد الثورة فقط.

من الواضح أن التفكك سوف يبقى حتى مرحلة انتصار الثورة، ثم يبقى بعدها أيضا، بمعنى أن إعادة بناء المجتمع المتماسك، وبناء الجماعة السياسية الواحدة في مجتمعات الثورة، لن تحدث قبل انتصار الثورة، أو مع انتصارها، ولكن بعد استكمال انتصارها.

في كل المجتمعات تتشكل كيانات تعبر عن هوية المجتمع، ثم تلحق بها كيانات ومكونات أخرى، وبعض تلك الكيانات تنجذب لها، والبعض الآخر يجاريها، والبعض الباقي يضطر للإذعان لما أصبح سائدا في المجتمع، رغم اختلافه معه.

تتشكل إذن قاعدة اجتماعية جديدة للأمة، تحمل مشروع التحرر والاستقلال، وتحمل هوية الأمة، ويتوسع جمهورها، وربما يتوسع جمهورها أكثر لحظة الانتصار، مما يشكل أساسا جديدا لبناء مجتمعات الثورة، ومن ثم بناء الأمة.

تستمر المعركة الثقافية في كل مراحل الثورة، حتى بعد انتصارها، لتصبح تلك المعركة واحدة من المعارك التي تحسم عملية التحرر والاستقلال، وتؤسس لمرحلة البناء والنهوض، لأن تراجع الأمة وسقوطها تحت الاحتلال، كان له بعد ثقافي مهم.

الخلاصة

وصلت الأمة الإسلامية لمرحلة الموت الحضاري السريري، وهي مرحلة تمثل خطرا على رصيدها التاريخي والحضاري، مما يؤدي لمحاولات للخروج من تلك الحالة، وتتعدد المحاولات ومساراتها، كما تختلف نتائجها.

تبدو المنطقة العربية والإسلامية وكأنها في مرحلة تحتاج فيها إلى إعادة التأسيس حتى لا تخرج من التاريخ. وهو ما يجعل فعل الثورة يستمر رغم ما يواجه، ولكن في نفس الوقت، ينشط خيار التغيير بالقوة، كرد فعل على منظومة الاستبداد والاحتلال.

الظاهر أن الأمة في مرحلة تحتاج فيها لغلق حقبة الاحتلال والاستبداد، حتى تتمكن من استعادة وجودها أولا، وقبل استعادة نهضتها، مما يجعل الحراك الثوري جزءا من إعادة تأسيس الأمة مرة أخرى، أي إعادتها للتاريخ كفاعل مؤثر مرة أخرى.

تمثل الثورة مشروع التحرر، في حين أن التغيير بالقوة يمثل رد فعل يحاول استعادة الماضي وفرضه قسرا على المجتمعات، حتى لا تغيب الأمة. مما يعني أن مشروع الثورة يبنى أساسا على تحرير الأمة من أجل بناء مستقبل جديد.

قد تتعدد احتمالات المستقبل، ولكن من الواضح أن عملية إعادة التأسيس تشكل عنصرا مهما في مسار الثورة والتغيير، وتمثل أيضا حاجة تاريخية وحضارية، تعيد حضور الأمة الإسلامية من جديد، وتخرجها من هيمنة الاحتلال الخارجي والداخلي.